كفاية ضبط القسم: المفهوم والآليات

د. خالد ناصر الدين*1*

يعرف محمد الدريج الكفاية بأنها «مجموعة من المعارف والمهارات والاتجاهات المكتسبة والمندمجة بشكل مركب، والتي يقوم الفرد بتجنيدها وتوظيفها قصد مواجهة مشكلة ما في وضعية محددة.»2

وهو تعريف يدل على حقائق كثيرة يمكن إجمال بعضها في:

- إن الكفاية تقوم أساسا على تجميع وتركيب جملة من المعارف والمهارات والاتجاهات عن طريق الاكتساب والاندماج.
- إن الهدف من تجميع وتجنيد كل هذه المهارات والمعارف هو توظيفها لمواجهة مشكل ما في وضعية محددة.
- بناء على ذلك فإن المقاربة بالكفايات تشمل كل أطراف ومكونات العملية التعليمية (التلميذ، المدرس، الحارس العام، الناظر، المدير، الموجه، المفتش، المدير الجهوي...)
- وبالنظر إلى خلفياتها النظرية يتبين أنها تتجاوز حدود المدرسة، وأنها تخاطب الإنسان مهما كان سياق تفاعله وتواجده، وخلفياتها النظرية هي العلوم المعرفاتية، وبيداغوجيا الإدماج، وبيداغوجيا التفعيل...

سأخصص هذه الورقة لمناقشة واحدة من أهم الكفايات المنوطة بالمدرس3، وهي كفاية ضبط القسم، لاعتبارات ثلاثة على الأقل:

1- باحث في علوم التربية.

2-الدريج محمد، (الكفايات في التعليم، من أجل تأسيس علمي للمنهاج المندمج)، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ص:16.

3-يتحدث المتخصصون عن كفايات عديدة تهم المدرس منها: الكفاية التخصصية أو النوعية، الكفاية الديداكتيكية، الكفاية في علم النفس التربوي، الكفاية التواصلية، كفاية ضبط القسم، كفاية التحكم في الانفعال، كفاية الالتزام، وغيرها، انظر: اسليماني العربي (الكفايات في التعليم: من أجل مقاربة شمولية)، الطبعة الأولى، 2006م، ص: 122_124.

الإشكالات التي يطرحها هذا المفهوم في الأوساط الاجتماعية عامة، والتربوية_التعليمية على وجه الخصوص، انطلاقا من التَّمَثُّلات الخاطئة التي مازالت تربطه بالسلطوية والزجر والاستعلاء أحيانا وبالقمع والترهيب والعنف (الجسدي والرمزي) أحيانا أُخَرَ.

تعد كفاية ضبط القسم شرطا رئيسا لنجاح العملية التعليمية/التَّعَلُّمية ككل، إذ في غيابها يستحيل الحديث عن التواصل الإيجابي، ولا عن التفاعل المؤثر الفعال، ولا عن اكتساب الكفايات، ولا عن تبادل الخبرات والتجارب، كما تعد مؤشرا قويا على نجاح الأستاذ في أداء رسالته التربوية والتعليمية.

من أكبر الصعوبات التي تواجه المدرسين اليوم، مسؤولية ضبط القسم، خاصة في ظل الأزمة الخانقة التي تعيشها المدرسة المغربية اليوم، والتي يعد الاكتظاظ من أبرز تجلياتها، إذ أصبح عدد التلاميذ يفوق أحيانا الخمسين تلميذا في القسم الواحد وفق التصريحات الرسمية، وهذا ما يجعل مهمة المدرس في منتهى الصعوبة، وفي غاية الإرهاق، ولذلك فقد أصبح المدرسون يتنافسون _علانية ودون أن يستشعروا أدنى غضاضة_ في البحث عن مرافئ للنجاة من أهوال القسم وضغوطاته وضوابطه والتزاماته، فمنهم من يحتمي بالإدارة، ويفضل آخرون الفرار إلى شاطئ التخطيط والتوجيه أو إلى ضفة التفتيش...

ومن المفارقات الغريبة فعلا أنه في الوقت الذي يكثر فيه الحديث رسميا عن الإصلاح والجودة والحكامة وغيرها من الشعارات البراقة، ما تزال مدارسنا مرتعا لظواهر العنف والشغب والغش وشتى مظاهر الانحراف والتفلت من القيم والأخلاق.

أولا: إضاءة مفهومية

جاء في «لسان لعرب»: «الضبط: لزوم الشيء وحبسه، ضَبَطَ عليه وضَبَطَهُ يَضْبُطُ ضَبْطًا وضَبَاطَةً، وقال الليث: الضبط لزوم شيء لا يفارقه في كل شيء، وضَبْطُ الشيء حفظه بالحزم، والرجل ضابط أي حازم. ورجل ضابط وضبطي: قوي شديد، وفي التهذيب: شديد البطش والقوة والجسم.»4

لقد اقترن ضبط القسم في عقول الكثيرين بالقمع القائم على العنف بنوعيه (الجسدي والرمزي) الهادف إلى زجر المتعلم وتخويفه وذلك راجع إلى تمثلات خاطئة وممارسات غير سليمة تربط ربطا آليا بين الضبط والقمع.

4- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور،(لسان العرب)7/340، مادة: «ضبط»، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دار صادر_بيروت، الطبعة الثالثة: 1414هـ_1994م .

غير أن الضبط في المجال التربوي قد يكون نوعا من القمع والسلطوية، وقد يفيد الإتقان في الأعمال تخطيطا وتنفيذا، وذلك راجع لطبيعة الوسائل المستعملة في عملية الضبط.

إن ضبط القسم ليس معناه إشاعة جو الإرهاب والخوف بين التلاميذ، وإنما استثمار إمكانيات التلاميذ الحركية وحاجتهم إلى النشاط والحركة في أنشطة منظمة تساعدهم على التعلم والنمو السليم.

وكلما انتقلنا من عقلية الضبط إلى حالة الانضباط يكون ذلك أحسن، إذ الضبط يكون فوقيا وبواسطة سلطة مادية أو معنوية، أما الانضباط فهو امتثال لقواعد متفق عليها، وهو التزام مسؤولية يلتزم بها المتعلم عن قناعة وطواعية.

ثانيا: مبادئ في الضبط والانضباط

1. تعد شخصية المربي، باتفاق جميع المعنيين، من حيث قوتها أو ضعفها، ومن حيث قدرتها على التأثير والتمسك بقراراتها... إضافة إلى سمعته وإشعاعه العلمي والتربوي، العامل الأساس والحاسم في كل عملية ضبط، فعليها يتوقف كل نجاح في هذا المجال. فضبط القسم يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة شخصية المدرس ومدى قدرته على التأثير في تلامذته من غير تسلط ولا تشدد، لكن هذا لا ينفي وجود آليات وأساليب يمكن استعمالها لتهيء الجو التربوي المساعد على التحصيل والتعلم.

2. إن الوعي بالمرحلة والظروف التي يعيش فيها المتعلم ومراعاة سنه، واحترام شخصيته، والإلمام بعلم النفس التربوي عموما معطيات وشروط ضرورية لفهم الدوافع الكامنة وراء سلوكات المتعلم وتصرفاته.

3. إن الحكمة تقتضي استعمال اللين أو الشدة والصرامة في وقتها المناسب، لأن نجاح المربي في مهمته يتوقف على مدى تفوقه في حل هذه المعادلة الصعبة.

4. من الضروري أن يخضع تأديب المتعلم لنوع من التدرج بدءا بالنصح والإقناع والتنبيه، وانتهاء بالتأديب النفسي كالتوبيخ أو التأديب البدني علما بأن سلاح التأثير الشخصي سلاح قوي في يد المدرس قوي الشخصية، ويؤدي إلى نتائج طيبة من حيث توفير النظام في الفصل والتهذيب في نفوس التلاميذ.

5. إن معاملة جميع المتعلمين بطريقة واحدة، وبأسلوب واحد، خطأ تربوي فادح، إذ لابد من تصنيفهم، وعزل العينات المنحرفة، وإقامة العلاقة معها على أساس الردع حتى

يتجنب المربي الفشل بمواجهته المباشرة للجميع. كما أن ما يصلح لفرد أو لمجموعة أفراد، قد لا يصلح لآخرين، إذ لابد من تنويع الأساليب ومخاطبة كل واحد بما يناسبه قدر المستطاع.

6. «فاقد الشيء لا يعطيه»، و «المربي قدوة» ومن هذا المنطلق، فإن المدرس مُطَالَبٌ بأن يكون منظما في عمله، وجادا في أداء واجبه، وأن يعطي القدوة لتلاميذه فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه، فلا يعقل مثلا أن يطالب بعدم الصراخ ورفع الصوت، ويقوم هو بذلك في حال غضبه أو تأخره أو غير ذلك، ولا معنى لأن يحدثهم عن أضرار التدخين مثلا وهو يدخن أمامهم، وصدق .

7. إن التنسيق والتكامل بين المدرسين يبدو ضروريا وملحا من أجل تحقيق نتائج أحسن في مجال الضبط، فهذا من شأنه أن يجنب التلميذ الشعور بالتناقض والحيرة من متطلبات مدرس وآخر، كما يوحد من جهود المدرسين لتحقيق أهداف موحدة وبوسائل موحدة، ويمكن في هذا الصدد _من خلال عمل الفرق التربوية_ إعداد برامج تجمع بين المتعة والفائدة، وتؤلف بين الترفيه والتكوين، وتعطي للأساتذة فرص التواصل الفعال المثمر مع التلاميذ خارج إطار المقررات المدرسية، وبعيدا عن رسميات وضوابط الفصل الدراسي، وهذا ما يمكن أن يتحقق عبر أنشطة الأندية التربوية (نادي القراءة، نادي الرحلات، نادي الرسم والتشكيل، نادي المسرح، نادي البيئة، نادي الصحة...)، والورشات التكوينية (ورشة دعم المتعثرين، ورشة رعاية الإبداع الأدبي، ورشة تشجيع النبوغ والاختراع العلمي والتكنولوجي، ورشة التواصل والإنصات...).

8. يتطلب الأمر معالجة الظواهر السلبية في بدايتها حتى لا تتفاقم ويصعب تجاوزها، وذلك بالحكمة والصرامة المطلوبتين لذلك ينبغي تعويد التلاميذ على عادات وسلوكات متفق عليها منذ البداية، وإنشاء عقد ديداكتيكي واضح وصريح يحدد مسؤولية كل طرف في حفظ النظام بالقسم وخارجه.

9. إن تعاون باقي المسؤولين مع المربين واتخاذ الإجراءات الإدارية الضرورية عوامل تساعد على ضبط المتعلمين، فالمدرس أو المربي ليس وحده المسؤول عن تحقيق الانضباط داخل القسم، أو في المؤسسة، لذا لابد من التعاون بين كل الأطراف من مدرسين ومشرفين وإدارة ومساعدين وآباء... لزرع روح الجدية والانضباط في أوساط كل تلاميذ المؤسسة التعليمية.

على أن المنطلق ينبغي أن يكون من الفصل ومن المدرس نفسه الذي يتفاعل مباشرة مع التلاميذ، ويعرف المنضبط منهم وغير المنضبط، وعليه القيام بالإجراءات الممكنة والضرورية قبل اللجوء إلى الإدارة ثم إلى الأسرة في الحالات الصعبة.

ثالثا: مقترحات من أجل الضبط والانضباط

إضافة إلى ما ورد ضمنيا في المبادئ السابقة يمكن تقديم بعض المقترحات للمدرسين والإدارة للاستفادة منها:

1. اعتماد أسلوب الثواب قبل العقاب بتشجيع المنضبطين والذين يبذلون مجهودا واضحا من المشاغبين، ويكون ذلك معنويا بعبارات التشجيع اللفظية، أو إشعارهم بإضافة علامات (نصف نقطة مثلا)، أو ماديا بمنحهم هدايا تشجيعية يستفيدون منها في تعلمهم مثل المعاجم اللغوية والكتب ذات البعد التربوي أو الفكري المناسبة لمستويات التلاميذ وغيرها، ويمكن التنسيق مع الإدارة لتوفير مثل هذه الوسائل، على أن تقدم للذين يبذلون مجهودات حقيقية يشهد لهم بها جميع المدرسين.

2. العمل على إشغال التلاميذ واستثمار حركيتهم الزائدة وتجنب الوقت الميت بالنسبة لهم، وهذا يتطلب الإعداد الجيد للدرس والتنفيذ المحكم بما يساعد على إشراك التلاميذ في مختلف أنشطته وفعالياته ومراحله، كما يتطلب اختيار الوقت المناسب لإعداد الوسائل وكتابة التمارين على السبورة، وهو قبل انطلاق الحصة أو أثناء انشغال التلاميذ بالإنجازات الفردية.

3. الانتباه المستمر إلى غير المنضبطين، وإشعارهم بالمراقبة، وفتح نقاشات خاصة معهم خارج الحصص المقررة الرسمية.

4. إشعار التلاميذ بعدم الرضى على الجو العام داخل الفصل، وذلك بالسكوت مثلا، والتهديد بعدم تقديم الدرس إلا بعد السكوت والانضباط.

5. الاتفاق على قانون داخلي (ميثاق ديداكتيكي) للقسم يتم إعداده بمشاركة التلاميذ، ويكتب بخط واضح ويعلق في جانب من القسم، أو في الصفحة الأولى من الدفتر، ويتم التذكير به كلما دعت الضرورة إلى ذلك، كما يبقى مفتوحا لتطعيمه في حال وجود ما يبرر ذلك.

6. عند استنفاد الإجراءات والمقترحات السابقة، وفي حال عدم تحقيق النتائج المرجوة يُحَالُ المعني أو المعنيون على الإدارة في أوقات غير أوقات العمل داخل الفصل، والتي تفتح حوارا مع هؤلاء التلاميذ تهددهم فيها باتخاذ إجراءات صارمة في حقهم في حال عدم انضباطهم، ثم ترسلهم إلى أقسامهم بعد أخذ أسمائهم، وإذا تبين أن كل ما سبق لم يحقق المطلوب تستدعي الإدارة آباء التلاميذ المعنيين وتناقش معهم الأمر، وتنسق معهم من أجل المساعدة على تجاوز المشكل لما فيه مصلحة التلاميذ ومصلحة العمل بالمؤسسة.

خاتمة:

هذه مجموعة مبادئ ومقترحات يمكن الاستفادة منها، كلا أو بعضا، من أجل تحقيق ضبط وانضباط تربوي سليم بالأقسام، كما يمكن تعزيز هذه المقترحات بما تثبت التجارب نجاعته في هذا المجال.

إن المدرس هو واسطة عقد المنظومة التعليمية، وعليه يتوقف نجاحها أو فشلها، لأنه هو المسؤول المباشر عن تربية وتوجيه وتعليم أجيال المتعلمين، كما أنه الأساس الذي ينبني عليه الشأن التعليمي كله، إذ ليست المدرسة في حقيقة الأمر إلا المدرس، لذلك فإن كل حديث عن إصلاح المنظومة يستوجب بالضرورة السعي الحثيث لتوفير كل الشروط المادية والمعنوية التي تساعده على أداء رسالته النبيلة، ولعل أهم هذه الشروط على الإطلاق تظافر جهود كل المسؤولين وكافة المتخصصين لمساعدته على ضبط قسمه ضبطا تربويا يخول له أداء الوظائف المنوطة به على أحسن وأكمل وجه، خدمة للنشء الذي يعول عليه لبناء الغد المشرق الأفضل والأجمل.

إن العلاقة بين المعلمين والمتعلمين ينبغي أن تنبني على الحب والرحمة والتواضع، بديلا مفروضا عن مشاعر الحقد والقسوة والاستعلاء السائدة اليوم، ينبغي أن تكون العلاقة محفوفة بالمودة وآداب الصحبة من توقير الصغير للكبير، ورحمة الكبير بالصغير. «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحَمْ صغيرنا». حديث شريف. آباء وأمهات في المدرسة بدَلاءُ عن أمهات البيت وآبائه.

ومن شأن هذه المشاعر الإيجابية النبيلة أن تحرر المتعلمين من عقدة الشعور بالنقص في حضرة أستاذ يعلم كل شيء، ومن شأنها أيضا أن تفجر الطاقات وأن تصقل المواهب وتبلور الشخصية وتجعلها قادرة على التواصل الفعال الإيجابي في مناخ عبق بالحرية والمسؤولية، وإلا فالفظاظة من جانب المعلمين، والقمع السياسي من جانب الدولة، عصاً لا تربي إلا الحمير. و» على رأس الضارب تعود الضربة «.